

وفاق المدارس العربية..... غايات وإنجازات

الشيخ نور الرحمن لهراروي

هنا سؤال لطالما يزعجني، ولم أكد - وعساى لن أكاد - أستطيع أن أجيب عليه، من نحن؟ أحرار أم عبيد، مستقلون أم تابعون، رهوس أم أذئاب. أتحرج أن أقول: نحن أحرار لا عبيد، مستقلون لا تابعون، رهوس لا أذئاب، كيف وما زالت دولتنا باكستان تشهد - منذ يوم استقلالها - أنه ما ارتقى فيها السلطة إلا أناس لم يعدوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، وهم - وإن كانوا من بني جلدتنا - عبيد أميركا والغرب، قد ارتهنوا وباعوا ضمائرهم وانتمائهم وتاريخهم بعرض من الدنيا، أعلنوا على الإسلام والمتمتعين إليه حرباً ضروساً لا هودة فيها، وأمعنوا في إيذاء رجال الدين تحت حماية جبروت أميركا والغرب. هؤلاء الحكام الذين يلبسون لبوس الوطنية أو يزدهون برداء القومية ينفذون - حرفياً - ما أوصى به مولاهم أميركا: من ضرب كل حركة إصلاحية تستند إلى صميم السنة النبوية أو طريقة أهل السنة والجماعة، وإيقاف سيرها، أو - على الأقل - تعويق تقدمها و نفوذها وهيمتها على الجماهير، وخصوصاً الشباب المثقف في الجامعات والمعاهد..... يالهم من أشرار وأشقياء!! ياشتان بينهم وبين الدين!! أو منهم حاقدين على الإسلام وأهله!!..... قد بلغت شقاوتهم غاية ما وراءها غاية، فلا حيلة فيهم إلا أن يشفي الله صدورهم، ويزيح الغشاوة عن أعينهم، فيبتينا سماحة الإسلام وفضله، وكرم أخلاق المسلمين، وإلا فالأمر كما قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إمامتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وأدهنى من كل ذلك وأمر مآزاد الرّجح هياجاو الخرقا اشتعالا - تعقبهم للمدارس الدينية التي هي متاريس وحصون الإسلام، والتي حاجة المسلم إليها كحاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق. ومبدأ هذا الشرأ بو عذره - فيما نعهد هو الرئيس الأسبق المارشال أيوب خان، حيث كان ما عمله أول شيء - حين استولى على السلطة - أن همّ بإخضاع هذي المدارس للحكومة، وشدها في المكبس الحكومي؛ قضاءً على حريتها، وتقليلاً لشأنها، وحطاً من مكانها عن طريق ماسمأه: "جعل المدارس الدينية تحت حيازة الحكومة"، نفس الشعار الذي لا يتخجل الرئيس الجنرال برفيز مشرف أن يردده اليوم أي: "تحويل المدارس الدينية إلى التيار الحكومي". فما شبه الليلة بالبارحة!! وكلما طال الزمن وامتد الأمد ازدادت مكيدات ومؤامرات ضد المدارس الدينية، نسجت تحت إشراف المارشال أيوب خان في غاية من اللباقة والمهارة على يد أعداء الدين، حتى كادت أن تغمر معازل الذود عن الدين والفضيلة والعلم. وإزاء هذا المنظر الرهيب يكاد اليأس يستولي على نفس كل مسلم مؤاس قاطعاً الأمل

من أن يجد بصيصاً من نور يخترق هذا الظلام الدامس خطوة بخطوة، لولا طائفة من فحول العلماء الذين توسموا وتفظنوا لهذا الخطر الداهم، فغرموا على الصمود ضد الضُغط، ووقفوا في وجه هذا الطوفان، ولم يلبشوا أن لمسوا حاجة إلى تشكيل هيئة مشتركة للمدارس الدينية؛ كي يتمكنوا من رفع عقيرة دفاعية من صعيد موحد ضد المؤامرات الحكومية، وبالتالي فأنشأوا هيئة تعليمية، أسموها: "وفاق المدارس العربية بباكستان"، وذلك في عام ١٩٥٨ المسيحي. فأبى الله إلا أن يرد كيد عدو الإسلام في نحره.

وتشمل الأهداف التي من جرائها تم إنشاء هيئة الوفاق: جمع المدارس المنتشرة على مستوى الدولة تحت منهج دراسي موحد، وتنسيقها بحسن نظام وترتيب، وتنظيم الاختبارات وتليتها منح الشهادات للمرشحين الفائزين، والقيام بتعديلات مفيدة وإدخال تحسينات مُجدية في المناهج الدراسية من حين لآخر - حسب متطلبات العصر الحديث ومستجداته، وإيقاف حملات تضليل وتشويه شعرة ضد المدارس والرد عليها بغلظة، وإفضاح المؤامرات والمكيدات المحيكة ضدها وإسقاطها بكل إمكاناتها وعلى نطاق واسع.

وكان عملها - بادئ ذي بدء - يبطئ وعلى مهل؛ حيث إن عمل الاختبار لم يعد ينتظم إلا في عام ١٩٦٠ المسيحي، كما أن البداية كانت ضيقة النطاق بكل ما تعنيه الكلمة؛ بما أن الاختبار الذي نظمه الوفاق تحت إشرافه بدءاً ببدء لم يشمل إلا المرحلة العالمية. وتم انعقاد الاختبار الذي شارك فيه زهاء مئة طالب في سبعة مراكز.

وفي ١٩٨٣م وفق لمسؤولي الوفاق أن يوسعوا نطاق الاختبارات - بعد أن لم يزل متسماً بالضيق إلى برهة غير قصيرة أكثر من عشرين عاماً - إلى المراحل الدراسية الأخرى، ولكن لادفعة واحدة بل على مهل وببطء. حيث ربطوا إلى سلسلة الاختبارات: الثانوية الخاصة في ١٩٨٣م، والثانوية العامة في ١٩٨٤م، والمرحلة العالية في ١٩٨٥م، والمرحلة المتوسطة في ١٩٨٩م، وفي ١٩٨٩م اتجهت عنايتهم إلى مدارس البنات اتجاهاً صحيحاً، اعتبر خطوة تُجَاه التطور في ميقاتها، حيث حازوها إلى دائرية الوفاق بإجراء اختبارات تحت إشرافه. ومنذ هذه السنة أضحت هيئة الوفاق تُجري كل عام تسعة اختبارات، بما فيها أربعة للبنات، علاوة على اختبار تحفيظ القرآن الكريم.

وهناك ملاحظة طريفة تجدر بالثناء فعلاً، وهي: أن هذه الاختبارات برمتها يتم انعقادها بدءاً ونهايتها في جميع مقاطعات البلد بالإضافة إلى كشمير المستقلة في ميعاد موحد، لا تتقدم ولا تتأخر. ومن البنات الأولى التي منها أسس بناء الوفاق وعليها قام صرحه العالي المنيف: سعادة الشيخ شمس الحق الأفغاني^{٢١}، وفضيلة الشيخ خير محمد^{٢٢}، وفخامة الشيخ محمد يوسف البُوري^{٢٣}، وسيادة الشيخ المفتي محمود^{٢٤}، وقداصة الشيخ إدريس الميرتي^{٢٥}... وقد تناوب كلهم رئاسة الوفاق واحداً إثر واحد. وهؤلاء الأعلام الجهابذة قلدوا ببجود مضنية لتطوير الوفاق ليل نهار، مضحين بكل مرتخص وغالي في سبيل المحافظة على المدارس الدينية وعلى الفضيلة وعلى العزة، مستيقنين أن القيام بالواجب هو أسنى المطالب، لا سيما الشيخ المفتي محمود^{٢٦}؛ فإنه مازال مرتبطاً بالوفاق عند تأسيسه - إلى يوم أسعده الله بجواره - انتخب

أول ما انتخب - أميناً عاماً للوفاق، ثم رئيساً له. وهو الشيخ إدريس الميرتي الذي مفتي يرأسه في عمله، قد بدلا - في مبدأ الأمر - عوناً كبيراً وعناية تامة في إنفاذ الوفاق وتنسيقه وتوطيده هيكلة الأساسي. وليس من شك أن الشيخ المفتي محمود أقد أسدى إلى الوفاق خدمات جليلة مشكورة لا تكاد تنسى، ولكن بعد برهة من الزمن ومن سوء الحظ شاءت الأقدار أن دخل معترك السياسة الوطنية التي حالت دون توجيه عنايته إلى الوفاق؛ فلم يعد يتسع له وقت يسهر فيه على سيره ونظمه وتطويره، بيد أن الأمر ظل يسير تحت إشراف كبار العلماء - بين البطة والإسراع، وشبه منتظم إذا تحررنا أن نقول: في غير انتظام.

وفي ٣٠ نوفمبر - تشرين الثاني من عام ١٩٨٠م - بعد أن انقلب الشيخ المفتي محمود إلى كرامة الله وعفوه - انتخب سيادة الشيخ سليم الله خان أميناً عاماً للوفاق، وبعد ثمانية أعوام تقريباً في سنة ١٩٨٨م - تم أن عُيِّن رئيساً له.

وهو ما يزال يتسم برعاية الوفاق. أطلال الله بقاءه في صحة وعافية، وأكثر مفاخره ومآثره. والشيخ - منذ ما ارتبط بالوفاق - قد عني به عناية خاصة واتجه اهتمامه أكثر ما توجه إلى تنمية الوفاق وتوسيع دائرته وتنظيمه، بدلاً في هذا السبيل كل نفيس بدون كسل ولا سامة. واتخذ جميع الوسائل الكفيلة بتحقيق الأغراض التي من أجلها أنشئ الوفاق. وتحقيقاً لهذه الأهداف قد كرس جهوداً جبارة متواصلة على توالي الأوقات وتعاقب الساعات ليل نهار.

فلم نعد الحق ولا نرتكب الشطط إذا قلنا: إن الفضل في تطوير الوفاق وتنظيمه من جديد وتوسيع نطاقه يعود على الشيخ سليم الله خان. والحق يقال: إنه هو الذي نفخ الحياة في هيكله، وأنفذه من السقوط والفشل بعد أن كان على وشك الانهيار، وانتهى إلى شفا جرف هار. ولا غرابة في ذلك؛ فإنه رجل بمنايا عن معارك السياسة وبنجوة من شغور ذاتها، رجل تفرغ للعلم أياً تفرغ، وذو ولع به وخبرة واسعة فيه؛ فلا بدع أن يتمكن من القيام بهذه المأثرة العظيمة المجيدة التي قلما يوفق لها الإنسان.

وليس بخاف أن الشيخ قد لقي في هذا السبيل عنة كثيراً وشقة عظيمة، خصوصاً عقب هجمات المحادي عشر من سبتمبر، تلك الهجمات التي في أعقابها أعلن الرئيس جورج بوش حرباً صليبية على الإسلام وأتباعه، فأصبح فيلادلفيا ليلوس المسلمين يؤيد جنسهم... وبمجرد مكالمته ما تفيه أميركية واحدة سقط جنرالنا مشرف صريعاً بوزعته ربحه؛ فتحول - أياً تحول - عن المواقف القومية القديمة تجاه حكومة طالبان وقضية كشمير المحتلة وما إلى ذلك بوتعب المدارس الدينية وجميع الحركات الإسلامية؛ خضوعاً لضغط أميركا، ونزولاً عند رغبتها بمغادرة المدارس الدينية في محن ومهلدة باخطار ليست لها بها سابق عهد. ولم يلق رجال الدين من العنت والشدة في أحط أدوار الفسق والفجور في أحلك عهود المعصية والعنوان ما لاقوه في هذه الفترة. فكانت هناك هموم توالى ولا تنهي، ومصاعب تسلسل ولا تنقطع ولكن الشيخ صمد في وجه الحكومة الطاغية ولم يخضع لضغطها. وتصادعت جلة التوتيرين المدارس الدينية والحكومة، وظل الأمر على هذه الحال حتى انتهى إلى خضوع الحكومة للشيخ ورضيت - على مضض - بحل الأزمة بأسلوب سلمى عن طريق المفاوضات. وهناك مأثرة أخرى قام بها فضيلة الشيخ، ألا وهي: تشكيل "اتحاد المنظمات للمدارس

الدينية“، التي تضم خمس هيئات تعليمية تنتمي إلى شتات مدارس فكرية، يهدف من وراء ذلك إلى مواجهة الحكومة -بصد الذود عن المدارس الدينية- بشكل جماعي ومن صعيد موحد.

وصفوة القول : أن الشيخ لعب دوراً كبيراً فعلاً في تطوير الوفاق و تسييره قدماً تجاه الأمام .

وأنه لم يتطوّر الوفاق ولا ينتظم في عهود خالية ما تطوّر في عهده وانتظم. فله درّه!!!

والساعة بين أيدينا تقرير سنوي يتصل بالاختبارات السنوية لعام ١٤٢٤هـ، أعده الوفاق، وهو أدل دليل على مدى جهود الشيخ في هذا السبيل ... ووفق التقرير: ”في العام الدراسي ١٤٢٣هـ قد شارك ٨٣٥٧ طالب في الاختبار الذي تم انعقاده تحت إشراف الوفاق، على حين أن العدد في العام الدراسي ١٤٢٤هـ بلغ ١٠٢٨٦٥ طالباً وطالبة بزيادة ١٩٠٠٠ طالب وطالبة عن العام الماضي، كما أظهر التقرير أن الاختبار الذي نظمه تم انعقاده في ٤٧ مركزاً لمدنيين صغير وكبير -موضحاً أنه قد بلغ عدد مراكز الاختبارات في بنجاب ٢٢٤ مركزاً، والسند ١٠٣ مركزاً، وفي سرحد ٩١ مركزاً، وبلوشستان ١٣٣ مركزاً، وكشمير المستقلة ٢٨ مركزاً“. وذكر بعض التقارير: ”أنه انتهى عدد المدارس والجامعات التي تم إلحاقها بالوفاق إلى ٧٠٤٤ مدرسة وجامعة، ضمنها من بنجاب ٢٦٥٥ مدرسة، والسند ٢٤٥٧ مدرسة، وسرحد ١٤٠٥ مدارس، وبلوشستان ٣٩٤ مدرسة، وكشمير المستقلة ١٣٣ مدرسة.“

والأمين العام للوفاق -حالياً فضيلة الشيخ محمد حنيف الجالندهرى، حفيد أستاذ العلماء الشيخ خير محمد الجالندهرى، ومدير جامعة خير المدارس بملتان، والسكرتير العام لاتحاد المنظمات للمدارس الدينية، وقد علمنا -بكل اغتباط- أنه تتوفر فيه الصفات التي تؤهله لهذه المناصب الجليلة: من الحزم، والعزم، والإخلاص، وحسن القيادة، وقوة البيان، والصلاح، والديانة، والفتوة الفائقة، والإنسانية السامية، ومكارم الأخلاق، والكفاءة الإدارية، وسرعة البت، واليقظة البالغة. وقد سعى في التقريب والتصافي بين شتى طوائف تحمل اسم الإسلام، من الديوبندية، والبريلوية، والشيعية، وغيرها سعيًا بالغاً مشعراً. ومزج هذه العناصر المختلفة مزجاً غريباً، وفي وقت لم تعد الحكومة الطاغية والقوى المعادية تفتقر لحظة واحدة عن أن توجه إلى المدارس الدينية اتهام الطائفية بهدف تشويه سمعتها، وتقليل شأنها، وتعويق نفوذها على الجماهير.... ولكن هيئات هيئات لما يمكرون!!! فإزاء هذا الحلف الخماسي المتكبر من هيئات تعليمية لمدارس فكرية متشعبة فشلت محاولات الحاقدين على الإسلام لإثارة معارك وتوترات طائفية، وأخيراً التجأت الحكومة إلى سحب قرار تشريعي بعد أن تمت الموافقة عليه.

وأيضاً للوفاق لجنة تنفيذية، كيانه من سبعة وعشرين عالماً من أفذاذ علماء باكستان. ومن هؤلاء الصفة المختارة: سمو الشيخ حسن جان، ومعالى الشيخ المفتي محمد رفيع الثماني، وسيدة الشيخ الدكتور عبدالرزاق إسكندر، وفضيلة الشيخ أنوار الحق، ونجاة الشيخ المرحوم نذير أحمد، ونبأه الشيخ فضل الرحيم. وهذه كلمة سقّتها على عجل نزولاً عند رغبة بعض المشايخ، ولل كلام متسع إذا لزم. وأختما متوجهاً بالرجاء إلى الله -بعل لسانى- أن يكب للوفاق أن يكون حياً سعيداً وخضراً عضراً ما طرد الليل والنهار وأطرد النجم وسار، وأن يشق طريقه إلى الأمام آمناً من عواصف الثبور وقواصف الدهور. ☆.....☆